موقف رجال الدين من مقاومة وباء الطاعون في عصر دولة المماليك

أ.د. أحمد عبد الجواد (*)

كان هناك أربعة من الأوبئة التى هددت البشرية وسببت فناء عدد كبير من البشر منذ القرن الرابع عشر، وهى الطاعون والجدرى والكوليرا والأنفلونزا. ويعد وباء الكوليرا من الأوبئة المتوطنة بالهند، أما الجدرى فهو من الأوبئة المتوطنة بكل من الهند والصين. ويعد وباء الطاعون الذى له قوى انتشار كبيرة من الأمراض المتوطنة بوسط آسيا خاصة المناطق المطلة على البحر الأسود. ويتشابه وباء الأنفلونزا مع الطاعون فى قدرته على الانتشار في مناطق واسعة من العالم.

والعامل الذى يسبب كل من الطاعون والكوليرا هو البكتريا، أما الجدرى والأنفلونزا فيسببها أنواع خاصة من الفيروسات. وتعد هذه الأمراض الوبائية أمراض معدية. فكل الأمراض الوبائية هى بالضرورة أمراض معدية. لكن هناك بعض الأمراض المعدية التى لا تسبب أوبئة (أى ليس لها انتشار واسع في العديد من المناطق الجغرافية ذات التنوع الكبير في درجات الحرارة والرطوبة، كما أنها لا تنتشر بين العديد من الشعوب ذات الخصائص العنصرية والوراثية المختلفة، وذلك مثل الملاريا ومرض النوم، حيث أن تلك الأمراض المعدية تتوطن في مناطق جغرافية محدودة نظرًا لوجود العائل الناقل بها فقط هو ذبابة تسى-تسى في حالة مرض النوم والباعوض في حالة الملاريا). وهناك بعض الأمراض المعدية مثل السل والذى ينتشر بين عدد كبير من الشعوب كما أنه ينتشر على مساحة جغرافية واسعة ولكنه لا يسبب أوبئة. حيث ينتشر المرض عادةً بين الطبقات الفقيرة بينهم لسوء التغذية وسوء التهوية.

(*) أستاذ بكلية الطب البيطرى – جامعة القاهرة .

وتنتقل الأمراض المعدية إما بطريق مباشر أو بطريق غير مباشـــر. فالجــدرى والكوليرا والأنفلونزا ينتقلون بطريق مباشر، أما عن طريق القشور التى تجف وتتناثر محتوياتها التى تحتوى على الفيروسات فى حالة الجدرى، إما عــن طريــق التلــوث بالفضلات الأدمية كما في حالة الكوليرا، وإما عن طريق الإفرازات والـبرزاز الــذى ينتشر عن طريق الفم والأنف كما في حالة الأنفلونزا. وتحتاج الأمراض المعدية التى تنتقل بطريق غير مباشر إلى عائل ناقل مثل الحشرات. حيث تقوم هذه الحشرات مثل ذبابة تسى– تسى والباعوض بنقل العوامل المسببة للمرض من إنسان إلى أخر بعد أن تتكاثر وتتحور فيه.

أما في حالة الطاعون، فهو ينتقل بين ثلاثــةعوائل وهـــى الإنــسان والفئــران والبراغيث. وتقوم البراغيث بنقل البكتريا المسببة للمرض من الفئران إلــى الإنــسان بعد أن تتكاثر داخل البرغوث. ثم ينتقل المرض بعد ذلك من الإنسان المــريض إلــى الصحيح عن طريق العدوى. وتمثل البراغيث والفئران مــستودعا دائمــا ومــستمرا للبكتريا المسببة للمرض.

وهناك ثلاثة أنواع من الطاعون كلها تؤدى إلى الوفاة. النوع الأول هو الطاعون الليمفاوى أو الغددى أو الدملى. وفى هذا النوع تتضخم الغدد الليمفاوية التــى توجــد خلف الأذن وتحت الأبطين وأعلى الفخذين. وهو يبدأ برعشة ثم قيئ فــصداع ودوار فحساسية ضد الضوء، ثم ألم في الظهر والأطراف مع ارتفاع درجة الحرارة إلى ٤٠ م. وتصاحب هذه الأعراض الإمساك ثم الإسهال وهما العلامة الكبيرة التــى تــسبق الوفاة. والنوع الثانى هو الطاعون الرئوى، وفيه تصاب الرئتان مع التهــاب الــشعب الهوائية والذى يصاحبه استسقاء الرئتين. ويبصق المريض دماً وبعد ذلك تحدث الوفاة خلال ٣ – ٤أيام. أما النوع الثالث فهو طاعون التسمم الدموى، حيث تتكاثر البكتريــا في الأوعية الدموية وتحدث الوفاة خلال ٢٤ ساعة.

وباء الطاعون الكبير

من المعروف أن أكبر أوبئة الطاعون فتكًا في العصر الوسيط، والذى سجلت أثاره المدمرة على البشرية كتب المؤرخين، هو الطاعون الذى حدث عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م والذى تقول الرواية التاريخية أنه انتقل عن طريق السفن التجارية من ميناء "كافا" على البحر الأسود إلى الموانئ الإيطالية والفرنسية. وقد انتشر الوباء من تلك الموانئ؛ مثل جنوا والبندقية ومرسيليا، إلى داخل القارة، فوصل إلى ألمانيا وهولندا وبلجيكا، ثم إلي دول الشمال مثل السويد والنرويج. وكما انتقل الوباء إلى دول شمال البحر المتوسط فقد انتقل إلى دول شرق وجنوب البحر المتوسط فشمل الدولة البيزنطية والأناضول والشام والعراق وإيران حتى الهند شرقا. كما انتقل إلى مصر وكذلك بلاد أفريقية (تونس الحالية) ووصل كذلك بلاد مدن المغرب الأقصى مثل فاس ومكناس. وقد انتقل الوباء أيضا إلى مناطق جنوب مصر مثل بلاد النوبة الحبشة والصومال واليمن وبلاد الحجاز.

وقد تزامن هذا الطاعون الكبير مع بداية فترة الحكم الأولى للسلطان الناصر حسن بن قلاوون ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م. وقد استمر وباء الطاعون يهاجم كل من مصر والشام وبلاد نجد والحجاز واليمن بلا هوادة منذ نهاية حكم دولة المماليك البحرية وطوال حكم فترة حكم دولة المماليك البرجية حتى سقوطها عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م. وقد كتب فقهاء تلك الفترة رسائل ومقالات هامة عن كارثة الطاعون مثل؛ ابن حجر العسقلانى (ت : ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)، وجلال الدين السيوطى (ت: ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، كما سجل مؤرخى تلك الفترة تفاصيل أحداث تلك الكارثة بتفصيل كبير، مثل؛ تقى الدين المقريزى (ت: ٨٤٥هـ /١٤٤١م)، وابن تغرى بردى (ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، وابن إياس (ت:٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م).

وقد خصص ابن الوردى (ت: ٧٤٩هـ /١٣٤٨م) والذى توفى بالطاعون في دمشق مقامه في ديوانه سماها "النبا عن الوبا" عن أحداث الطواعين التى حدثت ببلاد

الشام. ويذكر في هذه المقامة أن الطاعون كان منتشرًا بمدن الشام منذ خمس عشرة سنة، فيقول "ياله من زائر، من خمس عشرة سنة دائر" (١) أى أن مدن الشام شهدت أوبئة للطاعون منذ عام ٧٣٤هـ تقريبا، أى أثناء فترة الحكم الثالثة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩- ٧٤١هـ/ ١٣٠٩- ١٣٤١م). أى قبل أحداث الطاعون الكبير الذى حدث عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م. وهو ما يذكره لسان الدين ابن الخطيب، الذى كان معاصرًا للطاعون الذى حدث بأوروبا ووصل إلى بلاد الأندلس، عن أصل هذا الوباء وبدايته ويذكر "قلنا هذا الواقع (أى الوباء) ابتدأ بأرض الخطا والصين في حدود عام أربعة وثلاثين وسبع مائة، حدّث بذلك غير واحد ممن يوثق به من أولى الرحلة البعيدة والجولان كالشيخ القاضى الحاج أبى عبد الله بن بطوطة وغيره (٢).

كما كان ابن الوردى شاهداً على الطواعين التى هاجمت الشام في نهاية فترة حكم الناصر محمد ابن قلاوون في عصر دولة المماليك البحرية، كان ابن إياس شاهداً على الطواعين التى حدثت حتى نهاية دولة المماليك الشركسة، وهى فترة تمتد لما يقرب من قرنين من الزمان، من عام ٧٣٤هـ إلى عام ٩٢٢هـ.

وقد شهدت تلك الفترة تأليف العديد من الرسائل والمقالات التى تعكس رأى الفقهاء في مقاومة الطاعون سواء في الشرق أو الغرب الإسلامى. ومن ضمن هذه الرسائل، الرسالة التى ألفها ابن حجر العسقلانى بعد طاعون ٨١٩هـ الذى حدث أثناء فترة حكم السلطان المؤيد شيخ (٨١٥- ٨٢٤هـ) والتى سماها "بذل الماعون في فضل الطاعون". وهى نفس الرسالة التى لخصها السيوطى بعد ذلك وسماها "ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون"(٣). وقد كتب السيوطى مقامه هامة عن أحداث الطاعون الكبير الذى عاصر أحداثه عام ٨٩٧هـ أيام السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ). وهى "المقامة الدّرية في الطاعون والوباء"(٤).

الطاعون وكارثة السكان

تشير كل المصادر التاريخية سواء في العالم الإسلامى، أو أوروبا، إلى أن وباء الطاعون سبب هلاك ما بين ٤٠- ٧٠% من عدد سكان المعمورة. وينقل ابن

الخطيب عن ابن بطوطة أن هذا الوباء كان سببا في هلاك سبعة أعشار المناطق التى ظهر بها"[٥] وتشير الإحصائيات أيضا أنه ما بين عـام ١٣٤٧- ١٣٥١م، أى خـلال الخمس سنوات الأولى من الوباء فقدت أوروبا ٢٤ مليون إنسان[٦].

تعرضت مصر في العصر المملوكى الشركسى لكارثة بشرية نتيجـة للهجـوم المتواصل لوباء الطاعون. وقد افترضت أحد المصادر أن عدد سكان مصر في فتـرة حكم المماليك البحرية كان حوالى ٣ ملايين نسمة[٧]. وقد استمر تناقص عدد السـكان في الفترات التالية تدريجيا حتى وصل في فترة الحكم العثمانى إلـى حـوالى مليـون وستمائة ألف فقط حسب إحصاء بيرم باشا في النصف الثـانى مـن القـرن السـابع عشر)[٨]. ونتيجة للتناقص الشديد في عدد السكان خربت العديد من المدن في كل من مصر والشام. وتذكر المصادر التاريخية "أنه في عام ٨٤٢هـــ/ ١٤٣٨م، انكمـشت مدينة القاهرة إلى ١/٢٤ مما كانت عليه"[٩]. وقد زاد عدد السكان زيادة طفيفة فوصل إلى ٢,٦ مليون نسمة عام ١٨٠٠م[١٠] حسب إحصائيات الحملة الفرنسية وذلك علـى مدى مائة وخمسين سنة[١١].

أدى تناقص عدد السكان إلى نتائج خطيرة أثرت على الوضع الاقتـصادى لكـل من الدولة ومجتمع الأفراد. "ويروى المقريزى أن دولة المماليك أمام هـذه الكارثـة اضطرت إلى حذف سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، وهى سنة الوباء من الحساب الخراجـى للفلاحين. حتى يقال مات في تلك السنة كل شىء حتى السنة نفسها. واعتبـرت سـنة الخراج هى السنة التالية لهاء أى سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م[١٢]. "كان نقص السكان فـي الريف لا يقل شدة عنه في المدن. وتمخض عن انخفاض ملموس في دخـول الطبقـة الحاكمة، ومن بين الألفين ومائتى قرية التى كانت تضمها مصر، تم هجـر أربعـين قرية وتخفيض الأعباء الضريبية على أربعمائة واثنين وستين قريـة أخـرى. وفـى المجمل تقدر نسبة انخفاض الدخول الضريبية بحـوالى ١٢% خـلال الفتـرة بـين ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م[١٣]. ومن المؤكد أن مجمل اقتصاد مصر كان يعانى من أثار هذه الأزمة. فقد ادى العجز في الأيدى العاملة وارتفاع أجورهـا إلـى

انخفاض الانتاج الزراعى، بينما ذبلت جماعات الصناع الحرفيين في القطاعات التى كانت تشتد فيها المنافسة الأجنبية (مثل قطاع المنسوجات)[١٤].

ويؤكد المقريزى في حوادث ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣هـ أنه "أحصى ما بالإسكندرية من القزازين- وهم الحياك- فكانوا ٨٠٠ نول بعد أن كانت أربعة عشر ألف نول ونيف في أعوام بضع وتسعين وسبع مائة"[١٥]. وقد أدت كارثة تناقص عدد السكان التى شملت الصناع المهرة والمهندسين إلى تدهور تقنى رصد ملامحه ابن خلدون (ت: ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م). "إذ يتذمر ابن خلدون بأن فن بناء السفن قد تدهور في الشرق الأوسط لدرجة أن الحكومة اضطرت الى اللجوء إلى المساعدة الأجنبية عند الحاجة. حتى البناؤن المهرة مثل بنائى السقوف الحديدية يجب إحضارهم من الخارج مثل الأناضول لإصلاح ما دمرته النيران في المسجد الأموى في دمشق عام ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م. ويسرد مؤلف لبنانى عجز مهندسى المماليك عن بناء جسر فوق نهر، إذ ثبت إخفاق محاولتهم لذلك"[١٦].

أدت كارثة تناقص عدد السكان إلى نتائج بعيدة المدى شملت كلا من الدولة والمجتمع. كان أحد هذه النتائج هو ما ذكرناه من انخفاض دخل الدولة المتحصل من الخراج و الجزية. ولتعويض هذا النقص فرضت العديد من المكوس على أصناف كثيرة من المحاصيل شملت الغلال وحتى الفاكهة، وهو ما أدى إلى ارتفاع الأسعار وندرة الأقوات والذى نتج عنه سوء الحالة الاقتصادية للأفراد. وقد ادى انخفاض دخل الدولة وقلة الموارد المالية للسلاطين إلى عدم قدرتهم على شراء المماليك لتعويض النقص الكبير في أعدادهم نظراً لموت عدد كبير منهم بالطاعون. نتج عن هذا ضرب القوة العسكرية للدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز في الصميم[١٧] ، وقد كان لذلك انعكاسات خطيرة على قوة مصر العسكرية التى تدهورت كثيرا في عهد دولة المماليك البحرية.

وتتفق الكثير من المصادر التى تتعلق بتلك الفترة على وجود كساد اقتصادى خلال القرن الخامس عشر. لكن تلك المصادر تختلف فيما بينها حول أسباب ذلك

الركود. "فيرجع جان كلور جارسين السبب الرئيسى لهذا الكساد إلى نقص السكان، بينما يرجع ألياهو أشتور السبب إلى الركود والتخلف التقنى، في حين يرجع أحمد دراج السبب إلى سوء الإدارة السياسية"[١٨]. ويرى الدكتور على السيد على "أن النظام السياسى وتدهور الأحوال الاقتصادية كانا من الأمور السائدة في الفترة التي سبقت انتشار الطاعون"[١٩]. ويضيف أيضا: "أن سلسلة الحروب الخارجية والداخلية التى شنتها دولة سلاطين المماليك كانت عاملا له أثره الفعال في استنزاف الموارد المالية. وقد أدت تلك العوامل مجتمعة إلى انتشار الطاعون في مجتمع يعانى غالبيته من سوء تلك الأحوال"[٢٠].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو؛ هل كان سوء الأوضاع السياسية والاقتصادية هو الذى ادى إلى انتشار الطاعون؟ أم كان الطاعون هو المقدمة الكبرى لسوء الأحوال الاقتصادية، ومن ثم إلى عسف وجور الأنظمة السياسية التى استخدمت كل طاقاتها الإدارية في سلب أموال وممتلكات الأفراد، وهو الذى ادى إلى إعاقة التراكم الرأسمالى لدى الأفراد، وتدهور التجارة والصناعة وتراجع التقنيات.

ويمكن القول بداية أن المجتمعات الأوروبية في فترة القرن الخامس عشر كانت تعانى هى الأخرى من سوء الأحوال السياسية والاقتصادية. فقد ساد في تلك الفترة النظام الاقطاعى حيث طبقة النبلاء يتحكمون في الأرض الزراعية وما عليها من الأقنان الذى وصل وضعهم إلى وضع أقل من العبيد. الشيء الآخر هو أن تلك الفترة شهدت حروباً وراثية بين الأسر المالكة كما شهدت حروبا دينية استنزفت الموارد وضربت الاقتصاد. نذكر من هذه الحروب حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا. وفى أعقاب تلك الحرب شهدت انجلترا حربا بين النبلاء الإقطاعيين والمعروفة بحرب الوردتين. وقد شهدت تلك الفترة أيضا الانقسام الدينى الكبير نتيجة لإنقسام البابوية ١٣٧٨- ١٤١٧م. وفى بداية القرن السابع عشر كان هناك حرب الثلاثين عاما (١٦١٨- ١٦٤٨م)، وهى الحرب التى اشتركت فيها النمسا والدانمارك وفرنسا وهولندا وألمانيا وأسبانيا والسويد. وقد بدأت الحرب بين البروتستانت والكاثوليك ثم تحولت تدريجيا لحرب من أجل سيادة نفوذ ألمانيا.

اختلاف رد الفعل بين المجتمع الإسلامى والأوروبى في مقاومة الطاعون

كانت هناك إذا سمات مشتركة بين المجتمعين الاسلامى في الشرق والأوروبى في الغرب، فكلاهما كان يعانى من سوء النظام السياسى وطغيان نظام الحكم والتدهور الاقتصادى، كما كان كلاهما يعانى من ضربات الطاعون الهائلة. وعند هذه النقطة الأخيرة بالذات اختلف كل من المجتمعين اختلافاً مصيرياً نتيجة لكيفية التعامل مع وباء الطاعون وتفادى ضرباته المميتة على عدد السكان وهم عماد الاقتصاد والتطور وعماد الجيوش المتحاربة في كلا المجتمعين.

فقد استطاعت المجتمعات الأوروبية تفادى كارثة تناقص عدد السكان عن طريق اختراع ما يعرف "بمقاومة الطاعون" المجهول الأسباب عندئذ، بينما فشلت المجتمعات الإسلامية تماما في هذا الأمر. وهو ما أدى إلى إزدياد عدد السكان في أوروبا تدريجيا وتناقصها في المجتمعات الإسلامية، وهو ما أدى إلى انقلاب في الموازين الديموجرافية بين المجتمعين، والذى كان له أثاره السياسية والاقتصادية والعسكرية في القرون السادس والسابع عشر لصالح المجتمعات الأوروبية.

تشير المصادر التاريخية إلى أن أوروبا كانت تعانى من تناقص عدد السكان، نتيجة للكوارث الطبيعية والمجاعات والحروب، استمر لمدة ١٣٠ عاما وذلك قبل أحداث الموت الأسود، وهو الطاعون الكبير الذى حدث في عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م(٢١). وتشير تلك المصادر أنه بحلول عام ١٤٥٠م طبقت المدن الإيطالية مثل جنوا ونابولى وبيزا والبندقية إجراءات "الحجر الصحى" لمقاومة الطاعون(٢٢).

وتشمل تلك الإجراءات خمسة مبادئ تهدف إلى منع انتشار المرض عن طريق الحد من انتقال مرض الطاعون وعزل الأماكن والمدن المصابة. هذه المبادئ الخمسة هي "أولا: سياسة دقيقة لإنتقال البشر من المناطق المصابة بالطاعون إلى تلك التى مازالت خالية باستعمال الحجر الصحى البحرى أو البرى. ثانياً: دفن إجبارى للموتى بالطاعون في حفر خاصة، والتخلص من متعلقاتهم الشخصية. ثالثاً: عزل المرضى

بالطاعون في مستشفيات الأمراض المعدية (أو في أكواخ خاصة من الخشب والقش)، وحجز عائلاتهم في منازلهم، أو في غرف مؤقتة بعيدة عن الأماكن المأهولة. رابعاً: إضطلاع الوحدات المحلية بمسئولياتها في فرض الضرائب لتقديم خدمة طبية مجانية وإطعام الناس الموجودين في العزل. خامساً: تقديم المعونة لمن انهارت حياتهم نتيجة غلق الأسواق والذين لا يملكون مخزوناً من الطعام يعتمدون عليه"[٢٣].

كانت إجراءات "الحجر الصحى" الخمسة السابقة هى الإجراءات التى اتفقت عليها المدن الإيطالية بحلول عام ١٤٥٠م أى بعد موجة الطاعون الأولى بقرن من الزمان. وهي الإجراءات التى طبقتها كل الدول الأوروبية بالتدريج بعد ذلك. لكن إجراءات عزل المناطق والمدن المصابة، وأيضا الحد من انتقال المرضى بالطاعون من مكان إلى آخر طبقت قبل عام ١٤٥٠م وبطريقة صارمة. "ففى عام ١٣٧٤م أمر برنارد فيسكونتى حاكم ميلانو بعزل مدينة تبعد ١٥٠ كيلو متر جنوب ميلانو انتشر بها الطاعون"[٢٤]. "وفى فلورنسا كان يجرى تعقب الهاربين من الأماكن الموبوءة بالطاعون عن طريق الجنود، ورجال الشرطة المحلية، وأطلاق النار عليهم (إذا حاولوا لهرب)"[٢٥].

يتضح مما سبق أن تطبيق إجراءات الحجر الصحى لمقاومة الطاعون، استلزم قبول أمرين مهمين وهما، أولاً: أن الطاعون عدوى تنتقل من شخص إلى أخر، ثانياً: وهو مرتبط بالأمر الأول، هو ضرورة تقييد انتقال المرضى من مكان إلى آخر، ومنع زيارتهم، والتحرز من عائلاتهم لأنهم من حاملى العدوى، وأخيراً جذوره عزل المرضى وأيضا عزل القرى والمدن التى يظهر بها الطاعون بشكل وبائى.

"أجبر الجمع بين تطبيق الحجر الصحى للسفن القادمة (إلى الموانئ الإيطالية) والضوابط المفروضة على اليابسة، والطاعون، على التراجع تدريجيا. فقد شوهدت أخر مرة في اسكتلندا عام ١٦٤٧م، وفي أنجلترا ١٦٦٨م، وفى الأراضى الواطئة ١٦٧٠م، وفى غرب ألمانيا وسويسرا ١٦٧٩م وبعد ذلك اختفى تماما من غرب أوروبا"[٢٦]. وعلى العكس من ذلك فقد ظل الطاعون يضرب بلا هوادة الشرق الإسلامى، خلال العصر العثمانى حتى أن آخر طاعون كبير شهده عام ١٨٣٤م الذي

بدأ من مدينة الإسكندرية والذى طبقت فيه إجراءات الحجر الصحى بواسطة الطبيب الفرنسى كلوت بك الذى استعان به محمد على باشا. وقد حدث بعد هذا الطاعون طاعون آخر عام ١٨٤١م والذى كان خفيف الوطأة. وبذلك فقد استمرت مصر تتعرض لهجوم الطواعين منذ عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م إلى عام ١٢٤٧هـ/ ١٨٣٤م، أى لمدة خمسة قرون متوالية. وهو ما يفسر كيف أن عدد السكان استمر ثابتا تقريبا حول رقم ٣ مليون فرد.

موقف رجال الدين من الصحة العامة في المجتمع

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا، هو لماذا طبقت أوروبا إجراءات الحجر الصحى الخمس بغرض تفادى الطاعون؟ ولماذا لم تستطيع المجتمعات الإسلامية تطبيق نفس الإجراءات، والتى تعد ضرورية لتفادى ضرر أكبر هو موت المصابين بأعداد كبيرة. وبطريقة أخرى، ما هو المانع الذى حال دون تطبيق المجتمعات الإسلامية لهذه الإجراءات؟ وهل كان هذا المانع يكمن في تخلف الطب العربى وفلسفته؟ أم في شيء آخر يتعلق بموقف القوى الاجتماعية التى تتحكم في توجيه المجتمع؟

ويمكن القول أن مجتمعات الشرق الإسلامية شأنها شأن المجتمعات الأوروبية كان يتحكم في توجيه الشأن العام بها وخاصة مجال الصحة العامة رجال الدين في الوقت الذى ظهر فيه الوباء. ففى أوروبا كانت الكنيسة ورجالها هم المرجعية الوحيدة في تفسير النصوص الدينية كما كان لهم تفسيرهم الدينى في سبب هذا الوباء الذى كان يرجع إلى عمل الجن والشياطين وتفشى الزنى والرذيلة وعدم التقوى. والشيء ذاته في المجتمعات الشرقية، إذ كانت الشريعة الإسلامية والقائمين على تفسيرها هم المرجعية الوحيدة للحياة السياسية والاقتصادية والفكرية العلمية؟ كما كانوا هم أصحاب السلطة في توجيه الرأى العام وما يواجهه المجتمع من مشاكل تتعلق بالصحة العامة مثل الطهارة والنظافة والاغتسال. وحيث كانت بعض الأمراض المعدية مثل الجرب كانت بسبب عدم النظافة وفساد الأهوية كانت النظافة والاغتسال وسائل

ناجحة لمقاومة هذه الأمراض ومن هنا كان دور رجال الدين في مجال الصحة العامة. وزيادة على ذلك، فقد كان الفقهاء من أصحاب التآليف في مجال العلوم مثل علم الفلك والنجوم وعلم الطب بجانب علم التاريخ.

كان علم الطب من العلوم التى كان للفقهاء فيه تقاليد طويلة في التآليف. وخلال هذه الفترة كان علم الطب ينقسم إلى قسمين كبيرين، وهما الطب النظرى والطب العملى. كان الطب العملى مجالاً قاصراً على من يمارسون مهنة الطب بفروعه الأربع المختلفة، ومثال على ذلك أبوبكر الرازى (٢٣٥- ٣١٣هـ/ ٨٤٩- ٩٣٥م) وهو الذى ألف كتابه المشهور "الحاوى"، وكذلك ابن النفيس (٦٠٧- ٦٩٧هـ/ ١٢١٠- ١٢٩٨م). القسم الآخر من الطب وهو الطب النظرى والذى يتعلق بالقواعد والمبادئ وفلسفة علم الطب، كان مجالاً مشتركا بين الأطباء الممارسين لمهنة الطب والفلاسفة والمناطقة ورجال الفكر وكذلك رجال الدين خاصة الفقهاء. فقد ألف ابن سينا (٣٧١- ٤٢٨هـ/ ٩٨٠- ١٠٣٧م) في الفلسفة والمنطق بجانب كتابه المشهور في الطب المعروف باسم "القانون". وألف ابن رشد الحفيد (٥٢٠- ٥٩٥هـ/ ١١٢٦- ١١٩٨م) كتاب "الكليات" فى الطب بجانب تآليفه في مجال علم أصول الفقه، كما أنه تولى القضاء في قرطبة. وفى خلال فترة العصر المملوكى ألف ابن حجر العسقلانى (٧٧٣- ٨٥٢هـ) وهو قاضى القضاة الشافعى، وهو من أكبر علماء الحديث في زمانه حيث ألف كتابه المشهور "فتح البارى في صحيح البخارى"، ألف ابن حجر رسالة هامة في الطاعون وهى "بذل الماعون في فضل الطاعون" وفى نهاية عصر المماليك الشراكسة ألف جلال الدين السيوطى الشافعى المذهب (٨٤٩- ٩١١هـ) وهو من أكبر علماء الفقه والحديث واللغة في زمانه وله مؤلفات في تلك الفروع تزيد على ستمائة مؤلف من بينها كتابه المشهور "الإتقان في علوم القرآن" و"الحاوى في الفتاوى"، ألف كذلك في الطاعون كتابه "ما رواه الواعون عن الطاعون". وقد استمر هذا التقليد، وهو الجمع بين علوم الدين والطب حتى نهاية العصر العثمانى وذلك مثل الشيخ حسن العطار (١٧٦٦- ١٨٣٥)، والذى كانت له تآليف في الفلسفة والمنطق واللغة وعلم الكلام، وقد سافر العطار إلى أسطنبول وحصل على إجازة في علم الطب

وله مؤلفات طبية هامة في مجال علم التشريح. وبجانب هذا كان هناك من الفقهاء من وضع مؤلفات في علاج العديد من الأمراض اعتمادًا على وصفات ذكرت في القرآن والسنة وذلك مثل ابن القيم الجوزيه (٦٩١- ٧٥١هـ).

كان الأمر الآخر الذى دعا الفقهاء بالأخص إلى التعرض لوباء الطاعون هو وجود نصوص في السنة النبوية تتعلق بوباء الطاعون خاصة، وهى أحاديث مروية عن النبى صلى الله عليه وسلم، وعن عائشة هذا بجانب نصوص القرآن التى تتعلق بالموت والفرار منه بشكل عام نزلت في مناسبات مختلفة، وحيثما كان الطاعون هو الموت بعينه، فقد جرى تأويل تلك الآيات وتطبيقها على وباء الطاعون.

امتداد فتاوى رجال الدين إلى مجال الطب العملى

كان رجال الدين وبالأخص الفقهاء الذين تعرضوا لوباء الطاعون في مصر ينتمون إلى مدرستين مختلفتين من مدارس علم أصول الفقه. المدرسة الأولى، وهم الغالبية كانوا من اتباع الفقه الشافعى ومنهجه في القياس، أى "قياس الغائب على الشاهد"، والشاهد هنا هو الآيات والأحاديث المنصوص عليها، أما الغائب فهو المشاكل الجزئية التى تظهر لجماعة المسلمين على مرور الزمن، أما المدرسة الثانية من الفقهاء فكانوا قلة قليلة، وهم من أتباع "فقه المقاصد" في اصول الفقه وقد كان هناك فروق كبيرة بين المدرستين في تأويلهم للآيات القرآنية والأحاديث التى تتعلق بالطاعون.

دار جدل الفقهاء حول وباء الطاعون خلال العصر المملوكى حول نقطتين أساسيتين وهما. أولاً: هل الطاعون عدوى أم لا؟ وإذا كانت عدوى فهل يجب عزل المريض أو المرضى المصابين به؟ ثانيا: إذا كان وباء الطاعون عدوى، فهل يجوز لغير المرضى الفرار منه؟ أى هل يجوز لهم الهجرة والخروج من القرية أو البلد الذى ينتشر فيه الوباء إلى أماكن أخرى لا يوجد بها الوباء حفاظا على الأنفس.

ويمكن القول هنا أن معظم أن لم يكن كل الفقهاء بمذاهبهم المختلفة وكذلك المتصوفة قد رفضوا رفضا قاطعا مفهوم "العدوى". ويرى الحافظ ابن حجر العسقلانى

"أن ما يتصور أنه تم بطريق العدوى، إنما هو من خلق الله فيه ابتداء، غير منفصل من المصاب بالمرض".. هو موافق للنصوص الواردة في ذلك، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر، وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد، لا يعدى شيء شيئا"[٢٧]. وقد لخص ابن حجر العسقلانى في كتابه الأراء التى قيلت حول مفهوم العدوى في أربعة آراء. وهى: الأول: أن المرض يعدى بطبعه صرفاً، وهذا قول الكفار، الثانى: أن المرض يعدى بأمر خلقه الله فيه وأودعه فيه، ولا ينفك عنه أصلا، إلا أن وقع لصاحبه معجزة أو كرامه فيختلف. وهذا مذهب إسلامى لكنه من مرجوح. الثالث: أن المرض يعدى، لكن لا بطبعه، بل بعادة أجراها الله تعالى فيه غالباً، كما أجرى العادة بإحراق النار، وقد يتخلف ذلك بإرادة الله تعالى، لكن التخلف نادر في العادة. الرابع: أن المرض لا يعدى بطبعه أصلا. وترى الكثير ممن لم يخالط صاحب ذلك المرض أصلا، يصيبه ذلك المرض، وكل ذلك بتقدير الله تعالى "[٢٨].

وفى هذا النطاق قبل نفر قليل من الفقهاء مفهوم العدوى، وخاصة الفقهاء القائلين بفقه المقاصد مثل ابن القيم الجوزيه (٦٩١- ٧٥١هـ). إعتماداً على مبدأ "لا ضرر ولا ضرار" وهو من المقاصد الكبرى للشريعة. ويرى ابن القيم الجوزيه بضرورة الأخذ بالاستدلال العقلى في تلك القضية. "فهناك نوعان من الفقه، لابد للحاكم منها: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب والمحق والمبطل. ثم يطابق بين هذا وهذا فيعطى الواقع حكمه من الواجب، ولا الواجب مخالفا للواقع"[٢٩]. أى أنه لا يجب أخذ النصوص على علاتها، بل يجب العمل هنا بفقه الواقع الذى يعتمد على الاستدلال بالإمارات"[٣٠]، أى يعتمد على الفراسة والقرائن.

ويضرب ابن القيم مثلاً بقوم ابتلوا بالجذام وهم في قرية موردهم (أى مورد مائهم) ومسجدهم واحد. أما المسجد فلا يمنعون الصلاة فيه، وإن كان من الأفضل (حسب رأيه) لزومهم أماكنهم حسب قول عمر رضى الله عنه للمرأة المبتلاه- لما رأها تطوف بالبيت مع الناس "لو جلستِ في بيتك لكان خيراً لك". لكن يمنعون (أى

المجذومين) عن مائهم (ماء القرية) وورودهم مورد (الماء) للوضوء وغير ذلك"[٣١]. وذلك خشية أن يسببوا ضرراً لباقى أهل القرية. وحسب مبدأ "منع الضرر" فإنه "يفرق بين المجذوم وزوجته، ويحال بينه وبين وطء جواريه للضرر"[٣٢]. وقال ابن حبيب: "يحكم عليهم بتنحيتهم (أى عزلهم) ناحية إذا كثروا، وهو الذى عليه فقهاء الأمصار"[٣٣].

يتضح من شرح ابن القيم أن ما يجوز من عزل المجذومين إذا كثروا أيضا في حالة المصابين بالطاعون إذا كثروا، إذ يجوز عزلهم خوفا على جماعة المسلمين. ويفتى تاج الدين السبكى الشافعى (ت: ٧٧١هـ) بجواز عزل مرضى الطاعون تفاديا للضرر الذى يحيق بالذى يخالطه وذلك "إن شهد طبيبان عارفان عدلان، أن ذلك- يعنى مخالطه الصحيح للمريض- سبب في أذى المخالط- فالامتناع عن مخالطته جائز، أو أبلغ من ذلك"[٣٤]. وهو الرأى الذى رفضه ابن حجر العسقلانى، إذ يقول: "لا تقبل شهادة من يشهد بذلك، لأن الحس يكذبه. فهذه الطواعين قد تكرر وجودها في الديار المصرية والشامية، وقل أن يخلو بيت منها، ويوجد من أصيب به من يقوم عليه من أهله وخاصته، ومخالطتهم له أشد من مخالطة الأجانب قطعا. والكثير منهم الأكثر سالم من ذلك، فمن شهد بأن ذلك سبب في أذى المخالط فهو مكابر. وتاج يرحمه الله. جرى على إثبات العدوى بطريق العادة، وأن الذى جرى في نفى العدوى إنما المراد به أنها لاتعدى بطبعها"[٣٥].

نتيجة لرفض غالبية الفقهاء لمفهوم العدوى قياسا على الحديث النبوى، فقد رفضوا أيضا الفرار منه أو الخروج من البلد الذى ينتشر فيه الطاعون إلى المناطق الأخرى الخالية منه قياسا أيضا على العديد من الآيات القرآنية التى تحض على عدم الفرار من الموت. "مثل: {ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم} [البقرة: ٢٤٣]، {قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل} [الأحزاب: ١٦]، {إنما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة} [النساء: ٧٨]، لذلك فقد اتفق غالبية رجال الدين على الزجر

عن الخروج من البلد الذى يقع فيه الطاعون فراراً منه[٣٦]. إذا رأوا أن الموت الشامل الذى يصاحب وباء الطاعون ما هو إلا عذاب أرسله الله تعالى إما عقابا للمسلمين لخروجهم عن طاعته أو ابتلاءًا لهم {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا} [الأنعام: ٦٥].

رغم أن الرأى السابق كان هو الرأى السائر بين غالبية الفقهاء فقد شذ عن هذا الرأى نفر قليل من الفقهاء الذين يقولون بفقه المقاصد مثل الشيخ زين الدين إبراهيم الشهير بابن نجيم الحنفى (٩٢٦- ٩٧٠هـ). وقد حدد ابن نجيم عددا من القواعد لاستنباط رأيه المخالف لغالبية الفقهاء.

القاعدة الأولى: هى أن الأمور بمقاصدها، أى أن الشىء الواحد يتصف بالحل والحرّمة باعتبار ما قصد له. القاعدة الثانية؛ هى أن المشقة تجلب التيسير، وبيان أن سبب التخفيف سبعة، وهى: السفر، والمرض، والإكراه، والنسيان، والجهل، والعسر وعموم البلوى. القاعدة الثالثة: وهى أن الضرورات تبيح المحظورات"[٣٧]. ونتيجة لذلك فقد افتى ابن نجيم بأنه "يستحب له (للطاعون) الفرار إلى الصحراء، لقوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) [البقرة: ١٩٥]. وقد قيل: الفرار ممالا يطاق من سنه المرسلين، وهو يفيد جواز الفرار من الطاعون إذا نزل ببلده"[٣٨].

يتضح مما سبق أن غالبية الفقهاء اتفقوا على أمرين مهمين بالنسبة لوباء الطاعون، أولهما أن الطاعون ليس بعدوى وبذلك فلا يجوز عزل المصابين به عن الأصحاء في البلدة التى يظهر بها، الثانى: رفض الفرار منه إذا وقع بالبلدة أو المحلة؛ وبذلك فلا يجوز الاحتراز منه بالانتقال إلى أماكن أخرى لا يوجد بها الوباء، بل الواجب ملاقته والصبر عليه. "فعن عائشة قالت: قال رسول الله: "لا تفنى أمتى إلا بالطعن والطاعون، وعن عمر بنت قيس قالت: سمعت عائشة تقول: الفار من الطاعون كالفار من الزحف"[٣٩].

الملاحظات الطبية حول وباء الطاعون

في كتب المؤرخين ورجال الدين

تجمع لدى المؤرخين وكتاب الحوليات على مدى ١٨٠ سنة من الإصابة بالطاعون العديد من المعلومات الطبية، فيما يمكن وصفه تحت مسمى "علم الأوبئة" Epidemiology بمعناه الحديث. ومن ضمن هذه المعلومات: ١- معرفة المكان الذى يأتى منه الطاعون، أى مصدره. ٢- معرفة مدة الطاعون وذروة وقوع الوفيات. ٣- معرفة وقت وقوعه. ٤- معرفة دورة الطاعون وتكرار حدوثه . ٥- معرفة أماكن بانتشاره داخل مدينة القاهرة والمدن الأخرى. ٦- معرفة المعرضين للإصابة بمرض الطاعون. ٧- معرفة قوة المناعة الناتجة عن الإصابة بالطاعون.

عايش كل المؤرخين في عصر دولة المماليك في مصر والشام أحداث الطاعون، وكانوا شاهد عيان على تلك الأحداث، ورغم أن المتأخرين منهم كابن إياس أو جلال الدين السيوطى قد اطلعوا على ما كتبه الأولون كابن الوردى والمقريزى. إلا إننا نلاحظ تكرار نفس المعلومات السابقة مع عدم الاستفادة منها. ولذلك فسوف نبدأ هنا بما كتبه جلال الدين السيوطى حول أحداث الطاعون الذى عاصره وهو طاعون ٨٩٧هـ وهو الطاعون الثالث الذى حدث زمن السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ)، وهو الطاعون الذى خصص له مقامة وهى؛ المقامة الدرية في الطاعون والوباء. "لما كان في أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة وردت الأخبار عن الأخيار بأن الطاعون قد انتشر في بلاد الروم، وأنه بصدد أن يطرق البلاد الشامية والمصرية ويروم. وكان للطاعون نحو خمس عشرة سنة لم يطرق هذين المصرين، ولا أناخ ركاب بهذين القطرين، ثم جاء الخبر بوصوله إلى البلاد الحلبية بعد شهرين، فأرجف الناس بدخوله مصر"(٤٠). "فلما انتصف جمادى الأولى أخذ في الحركة، وطرح على الناس الشبكة، فظهر الطعن بعد خفائه، وشهر بوفائه بواوه وفائه. فلما استهل جمادى الآخره، هجم الهجمة الكبرى، وعاث في الناس بحراً وبراً، وكم أخلى قصراً، وملأ قبراً، فأخذ البنين والبنات، والفتيان والفتيات، وجمع في الموت بين كل ألفين، وبلغ

عدد الموتى في ل يوم أزيد من ألفين، وقيل اكثر من ذلك بضعف أو ضعفين، فكم أخذ من بنين نفائس، ومن بنات عرائس"(٤١). "ومن عبيد وخدم، لهم في التأديب والتهذيب راسخة قدم. والذى يظهر في بادى الرأى أنه ذهب فيه من القاهرة النصف أو أشد، فإنه كان يدخل البيت وفيه النسم ذوات العدد؛ فإما يخليه فلا يذر فيه من أحد، أو يأخذ كل خادم وولد، ويترك الأبوين على ضمد"(٤٢). "وكان أكثر عمله في القاهرة شهراً، قهر فيها الخلائق قهرا. وكان مخالفا لعادة الطواعين بأمرين: أحدهما- أنه تأخر طروقه عن ميعاده شهرين. والثانى- أنه هجم في مصر قبل حلوله قرى البحرين. وذلك أنه خالف العوائد في أمر أخر زائد، وهو أنه مات به من تقدم طعنه، وجرت العادة أنه لا يموت به، وإن طعن كان سليما"(٤٣). "فلما دخل شهر رجب رحب الناس رحيله، ورحب الصدر بتحويله، وإن لم يكن لأحد فيه حيلة، فألمّ ببعض القرى البحرية والقبلية بعض الإلمام، وزارها زيارة الطيف في المنام، ورحل عنها بسلام... فلما دخلت سنة ثمانى وتسعين لم يدعهم إلا مجيء الأخبار بعودة إلى الإسكندرية وأنه بعث في الأصول من سكانها والذرية(٤٤).

أولا: تجاهل الشواهد التجريبية

على "العدوى" في وباء الطاعون

تبدو مقامة السيوطى للوهلة الأولى خطاب أدبى حول الطاعون، إلا أنها في الحقيقة تعد نموذجا رفيعا جدا للرسائل الطبية التى كتبها الفقهاء في نهاية العصر المملوكى، فهى مليئة بالحقائق العلمية حول وباء الطاعون. ومن ضمن هذه الحقائق:

١- الزمن الذى حدث فيه الطاعون وهو عام ٨٩٧هـ، وأن هذا الطاعون تأخر عن ميعاده المعتاد لمدة شهرين. ٢- أن مصدر هذا الطاعون كان بلاد الروم (بيزنطة) وأنه انتقل بعد شهرين إلى حلب ومنها إلى مصر. ٣- أن هذا الطاعون جاء بعد خمس عشرة سنة من الطاعون السابق له والذى حدث في عام ٨٨١هـ، والذى كان الطاعون الثانى في عهد السلطان قايتباى، ويذكر السيوطى أن هناك طاعون حدث بعد طاعون عام ٨٩٧هـ، وهو طاعون عام ٨٩٨هـ والذى دخل مصر عن طريق

ميناء الإسكندرية. ٤- أن هذا الطاعون قد دخل مباشرة إلى مدينة القاهرة، والمعتاد هو انتشاره أولاً بمدن سواحل البحرين (البحر الأحمر والبحر المتوسط). ٥- أن الطاعون قد انتشر في القاهرة في شهر جمادى الأولى، وأن ذروة الوفيات بالطاعون حدثت بعد شهر أى في شهر جمادى الآخر، وأن الطاعون قد اختفى بحلول شهر رجب. فاللطاعون بداية تستمر لمدة شهر، ثم ذروة تحدث فيها ذروه الوفيات (تستمر لمدة شهر) ثم يبدأ الطاعون في الانحسار في الشهر الثالث (شهر رجب)، ويذكر السيوطى أن عدد المتوفين في ذروة انتشاره وصل إلى ألفين في اليوم، وربما ضعف أو ضعفى هذا الرقم، وأن مدينة القاهرة فقدت نصف عدد سكانها في هذا الطاعون. ٦- أن الموتى كان أكثرهم من الأطفال (بنين وبنات)، ثم العبيد والخدم. ٧- أن هذا الطاعون خالف الطواعين السابقة في أمر هام، حيث مات به من أصيب من قبل بالمرض، والمعتاد أن من يصاب بالمرض قل أن يموت به بعد ذلك لتكون المناعة لديه ضد المرض.

تكرر ذكر العديد من المعلومات الطبية التى ذكرها السيوطى، بحذافيرها عند المؤرخين الذين سبقوه.

أولا: لاحظ المؤرخين على مدى تلك السنوات الطويلة أن الطاعون دائما ما يأتى في فصل الربيع مع هبوب رياح الخماسين وقبل فصل الصيف. ويتفق هذا مع ما أثبتته الأبحاث الحديثة من تكاثر البراغيث الناقلة للمرض في فصلى الربيع والخريف. وبذلك فعندما يؤكد السيوطى أن طاعون عام ٨٩٧هـ جاء متأخرا عن ميعاده شهرين، فإن معناه أنه جاء بعد شهور الربيع. ويذكر ابن أياس في طاعون المحرم من عام ٩١٩هـ، "... فلما دخلت الخماسين تزايد أمر الطاعون وفتك بالناس"(٤٥). وقد يحدث في بعض الأحيان أن يحدث الطاعون في فصل الشتاء عقب تكاثر البراغيث في فصل الخريف كما حدث في طاعون ٨٣٣هـ، زمن السلطان الأشرف برسباى "وكان هذا الطاعون مخالف لبعض الطواعين، فإن عادة الطعن يقع دائما في فصل الربيع، وهذا وقع في فصل الشتاء"(٤٦). وقد حدث طاعون ٨٦٤هـ في فصل الشتاء أيضا "وفى ربيع الآخر، وقع الطاعون ببلبيس والخانكاه، وابتدأ في القاهرة،

وكان ذلك في وقت الشتاء، فى أثناء شهر طوبة، وذلك بخلاف العادة، فإن الطعن ما يقع إلا في أمشير، في أوائل فصل الربيع"(٤٧).

وقد ذكر المقريزى ملاحظة على جانب كبير من الأهمية تتعلق بتكاثر الفئران أثناء أوبئة الطاعون، ويذكر أن هذا ينذر بحادث ينتظر وقوعه. وقد أثبتت الأبحاث الحديثة دور الفئران في نقل الطاعون، "وفيه (ذي القعدة من عام ٨٤٢هـ) ورد الخبر بأن الفأر كثر بأرض الزراعات، وأن في ناحية البهنسى للفيران حرب شهدها الناس، وقد اجتمع من الفيران عدد عظيم، اقتتلوا قتالا كبيرا ثم تفرقوا، فوجدوا في معتركهم من الفيران شىء كثير ما بين مقتول ومجروح ومقطوع بعض الأعضاء، وأنهم بلغهم أن ذلك كان بين الفيران في موضع آخر، وعندى أن هذا منذر بحادث ينتظر"(٤٨).

ثانياً: تحتوى المصادر التاريخية على معلومات وافية عن مصدر الطواعين وأماكن انتشارها في مصر والشام. فطاعون ٨٩٧هـ أيام السلطان قايتباى كان مصدره حلب(٤٩) ، وقد كانت حلب أيضا مصدر الطاعون الذى حدث في ربيع الآخر عام ٨٦٤هـ زمن السلطان الأشرف إنيال (٨٥٧- ٨٦٥هـ)(٥٠).

كانت مدن سواحل البحر المتوسط خاصة ميناء الإسكندرية المصدر الثانى للطواعين وذلك نتيجة للتجارة مع المدن الإيطالية مثل جنوا والبندقية ومع بيزنطة. فطاعون عام ٨٩٨هـ زمن السلطان قايتباى كان مصدره الإسكندرية كما يذكر السيوطى(٥١) وقد كانت الإسكندرية مصدر الطاعون الأول زمن السلطان الأشرف قايتباى وهو طاعون ٨٧٣هـ. ويذكر ابن إياس: "وقد بدأ بالإسكندرية في صفر ٨٧٣هـ، وفشا في البحيرة في جمادى الآخرة، ووصل القاهرة في رجب(٥٢) . المصدر الثالث الذى كان يأتى منه الطاعون هو بلاد الصعيد جنوبا عن طريق تجارة العبيد والعلاقات التجارية مع بلاد التكرور، وبلاد السودان. فقد ظهر طاعون ٨٣٣هـ أيام السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥- ٨٤٢هـ) "ظهر أولا في الصعيد في شعبان ٨٣١هـ، وانتشر في الوجه البحري في ربيع الآخر ٨٣٣هـ، ووصل القاهرة في جمادى الآخر عام ٨٣٣هـ، وقد كان اشد الطواعين فتكا"(٥٣).

وفى هذا السياق، لاحظ المؤرخون أن الطاعون مرض قابل للانتشار سواء من بلد إلى بلد أو من مدينة إلى مدينة أو من قرية إلى أخرى. ويؤكد ابن إياس عن طاعون ٨٣٣هـ "وكان هذا الطاعون عاماً في سائر البلاد، حتى في بلاد الغرب وبلاد الأفرنج، وأخلى ثغر الإسكندرية من الأطفال، وكذلك رشيد والبحيرة ودمياط والإسكندرية والغربية وإقليم الصعيد والفيوم وغير ذلك من البلاد القاطبة"(٥٤). وقد ذكر المؤرخون كذلك الأحياء التى انتشر بها في القاهرة. ففى طاعون رجب ٨٤١ "طفش الموت بالقاهرة جدا، وكانت قوة عمله في الصليبية وجامع ابن طولون، وقناطر السباع، وتلك النواحى"(٥٥). أما في طاعون ٨٦٤هـ "فكانت قوة عمله من خارج بابى زويلة إلى الصليبية وما حولها"(٥٦).

ثالثـا: تكرر هجوم الطاعون على مصر خلال العصر المملوكى بصفة مستمرة، وخلال الفترة من عام ٧٧٦ إلى عام ٨٤٨هـ ذكر ابن حجر العسقلانى تسعة عشر طاعونا خلال اثنين وسبعين سنة، أى بمعدل طاعون كل أربع سنوات. وقد كانت فترة المؤيد شيخ (٨١٥- ٨٢٤هـ) من أكثر الفترات التى تعرضت فيها مصر للطواعين. فقد تعرضت مصر في تلك الفترة إلى ستة طواعين، وهى طاعون المحرم ٨١٦هـ، رجب ٨١٧هـ، المحرم ٨١٨هـ، المحرم ٨١٩هـ، ربيع أول ٨٢٠هـ، وربيع آخر ٨٢٢هـ. وتعد هذه الطواعين مثالا على الطواعين التى كانت تحدث في كل سنة. لكن هناك طواعين حدثت بعد ٦ أشهر فقط من انتهاء الطاعون الأول، وذلك مثل طاعون رمضان ٩١٠هـ الذى حدث بعد طاعون ذى القعدة ٩٠٩هـ.

وقد اختلفت الفترة التى تفصل بين كل طاعون وآخر في أحيان كثيرة، فطاعون رجب ٨٤١هـ، جاء بعد طاعون ربيع الآخر ٨٣٣هـ، أى بعد ٨ سنوات. وطاعون المحرم ٩١٩هـ جاء بعد طاعون رمضان ٩١٠هـ، أى بعده بعشرة سنوات. أما طاعون ربيع الأخر ٨٦٤هـ فقد جاء بعد طاعون المحرم ٨٤٨هـ أى بعد ستة عشر عاما. وهو ما حدث في طاعون جمادى الأولى ٨٩٧هـ الذى جاء بعد طاعون رمضان ٨٨١هـ، أى بعد ستة عشر عاما (انظر الجدول رقم ١).

رابعاً: من أهم المعلومات الطبية التى ذكرها المؤرخون هى دورة الطـــاعون اى المدة التى يستغرقها من بداية انتشاره حتى انحساره. ففى طاعون ٨٩٧هـــ الذى ذكره السيوطى، اخذ دورة استمرت لمدة ثلاثة أشهر وهى البداية (جمادى الأولى) ثم الذروة التى تحدث فيها الوفيات (جمادى الآخرة) ثم فترة الانحسار (رجب) وهى ودائما مـــا تأخذ شهراً في هذه الحالة. هذه الدورة تتكرر دائما في كل الطواعين.

جدول رقم (١): الطواعين المختلفة التى حدثت بين عامى ٨٢٥هـ إلى ٩٢٢هـ

أسماء السلاطين الذى وقع في عهدهم الطاعون	السنة التى وقع فيها الطاعون	فترة الطاعون			ذروة الوفيات
		من	إلى	المدة بالشهور	
الأشرف برسباى ٨٢٥-٨٤٢هـ ١٤٢٢ – ١٤٣٨م	ربيع آخر ٨٣٣هـ	ربيع آخر	شعبان	٥ شهور	جمادى الأولى
	رجب ٨٤١هـ	رجب	ذى القعدة	٥ شهور	رمضان
الظاهر جٌمٌق ٨٤٢- ٨٥٧هـ ١٤٣٨ – ١٤٥٣م	رمضان ٨٤٢هـ	رمضان	ذى القعدة	٣ شهور	شوال
	المحرم ٨٤٨هـ	المحرم	جمادى الآخر	٦ شهور	صفر
الأشرف إينال ٨٥٧ – ٨٦٥هـ ١٤٥٣ – ١٤٦١م	ربيع آخر ٨٦٤هـ	ربيع آخر	رمضان	٦ شهور	جمادى الآخر
الأشرف قايتباى ٨٧٢ – ٩٠١هـ ١٤٦٨ – ١٤٩٦م	رجب ٨٧٣هـ	رجب	شوال	٤ شهور	شعبان
	رمضان ٨٨١هـ	رمضان	المحرم	٥ شهور	ذى الحجة
	جمـــــادى الأول ٨٩٧هـ/٨٩٨هـ	جمادى الأول	شعبان	٤ شهور	جمادى الآخر
الناصر محمد بن قايتباى ٩٠١ – ٩٠٦هـ ١٤٣٦ – ١٥٠١م	رجب ٩٠٣هـ	رجب	شوال	٤ شهور	رمضان
الأشرف قانصوه الغورى ٩٠٦ – ٩٢٢هـ ١٥٠١ – ١٥١٦م	ذى القعدة ٩٠٩هـ	ذى القعدة	ذى الحجة	شهرين	ذى الحجة
	رمضان ٩١٠هـ	رمضان	---	شهر واحد	رمضان
	المحرم ٩١٩هـ	المحرم	ربيع الأول	٣ شهور	صفر

مع بعض الاختلافات، فقد تطول هذه المدة لتبلغ خمسة أو ستة أشهر، وقد تقصر لتبلغ شهرا أو شهرين. فطاعون ٨٦٤هـ استمر لمدة ستة شهور من ربيع الآخر إلى رمضان، وهو ما يذكره ابن إياس "وقد أقام يعمل هذا الطاعون في القاهرة نحواً من ستة أشهر، ابتداء وانتهاء"[٥٧]. لكن هناك بعض الطواعين القصيرة التى استمرت لمدة شهر واحد. كما في طاعون رمضان ٩١٠هـ (انظر الجدول رقم: ١).

خامساً: من ضمن أهم المعلومات التى ذكرها المؤرخون، المعلومات التى تتعلق بالأشخاص المعرضين أكثر من غيرهم للإصابة بالطاعون لضعف المناعة لديهم. ويؤكد المقريزى في طاعون ٨٤١هـ "فإنه مات بالقاهرة ومصر وما بينهما في مدة شهر رمضان زيادة على مائة ألف إنسان، معظمهم من الأطفال، وأكثر الأطفال البنات، ويلى الأطفال في كثرة من مات الرقيق، وأكثر من مات من الرقيق الإماء، بينما كادت الدور تخلو من الأطفال والإماء والعبيد وكذلك جميع بلاد الشام بأسرها"[٥٨].

ويلاحظ هنا أن الأطفال هم الأكثر تعرضا لخطر الموت نتيجة لصغر سنهم وضعف المناعة لديهم، ويلى ذلك الرقيق وخاصة النساء لعدم تعرضهم من قبل لوباء الطاعون وضعف المناعة لديهم. ولم تسلم فئة المماليك، ورغم عزلتهم في قلعة الجبل من خطر الفناء نتيجة للإصابة بالطاعون نتيجة لوفود أفراد جدد منهم يشتريهم السلاطين ونتيجة لعدم تعرضهم من قبل للإصابة بالطاعون ونتيجة لنقص المناعة لديهم يكون موتهم أكثر وأسرع. هذا الوضع ينطبق كذلك على فئة الغرباء من التجار وخلافه، فقد كانوا كذلك معرضين لخطر الموت بالطاعون. ويذكر ابن إياس عن أحداث شعبان ٨٧٣هـ "وفيه تزايد الطاعون جداً، وعمل في الأطفال والمماليك والعبيد والجوار والغرباء عملا ذريعاً حتى عظم الأمر في ذلك"[٥٩].

لم تسلم الدور السلطانية أيضا بمن فيها من وفيات الطاعون. ويذكر المقريزى في أحداث ٨٤١هـ "وقد شنع الموت بالدور السلطانية في أولاد السلطان الذكور

والإناث، وفى حظاياه وجواريه، وجوارى نساءه، وفي الخدم الطواشية، وفى المماليك السلطانية سكان الطباق بالقلعة، وشنع الموت أيضا في سكان قلعة الجبل"(٦٠).

ثانياً: تجاهل الشواهد على العلاقة

بين الفرار من الطاعون والنجاة منه

نتيجة لسيادة الرأى الفقهي القائم على القياس، تم تجاهل كل الشواهد العينية التى تثبت أن الطاعون مرض معد، وبالتالى استبعدت النتيجة المنطقية لذلك، وهو أن الطاعون يمكن تفاديه بتفادى مصدر العدوى، وهم المرضى، وتفادى الأماكن الموبؤة بالفرار منها إلى مناطق بعيدة غير مصابة وفى هذا النطاق فسوف نورد عدة أمثلة.

١- يذكر ابن إياس كيف أن جماعة من المماليك ظهر بينهم الطاعون، لكن هذا الطاعون لم ينتشر خارج البيت الذى كانوا فيه. ويعتبر ابن اياس أن هذا أمر عجيب وغريب. لكن الحقيقة هى أن عزله هؤلاء المماليك وعدم اختلاطهم بغيرهم كان السبب الأساسى وراء عدم انتشار الطاعون إلى أحياء ومناطق أخرى بالقاهرة. "وفيه، المحرم ٨٥٩هـ، وقع أمر غريب، وهو أن جماعة من مماليك الأمير بردبك صهر السلطان (يقصد السلطان الأشرف إينال ٨٥٧-٨٦٥هـ) ماتوا بالطاعون، وقد ظهر ذلك بداره فقط، ولم يظهر ذلك بغير بيت بردبك فقط"(٦١).

٢- في الطاعون الثالث في دولة الأشرف قايتباى (جمادى الآخرة٨١٩٧هـ) يذكر ابن إياس أيضا "ومن العجائب أن جماعة كثيرة فروا من الطاعون داخل مصر، فتوجهوا إلى أماكن عديدة، فلما ارتفع الطاعون عادوا إلى مصر (يقصد القاهرة) ولم يفقد منهم ولا من أولادهم أحد، فسبحان القادر على كل شيء"(٦٢).

٣- نتيجة للشواهد والتجربة التى تثبت أن الفرار من الأماكن الموبؤة بالطاعون يؤدى إلى النجاة منه، ونتيجة لإصرار الفقهاء على عدم جواز من الطاعون في البلد الذى يظهر بها، لجأ الفقهاء أنفسهم إلى التعامل مع الواقع ولجأوا إلى الفرار هم

وأسرهم وأقربائهم إلى المناطق البعيدة، وهو ما فعله القاضى الحنفى عبد البر بن الشحنة. أثناء طاعون صفر ٩١٩هـ والذى قلده بعض كبار الأمراء وفروا من القاهرة. "وفى صفر تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وحصل للناس غاية الرعب، فهرّب قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة أولاده من أمر الطاعون فأخرجهم إلى نحو جبل الطور، وله بذلك عادة بأن يّهرب أولاده الصغار إلى جبل الطور في أيام الفصول (يقصد أوبئه الطاعون) ويسلمون من الطاعون، ويجوا (يعودوا) بعد مضى الفصل وهم سالمون، لا يفقد منهم أحداً حتى ولا من عياله. ويقال أن تلك الجهات لا يدخلها الطاعون"(٦٣).

دور الطاعون في تدهور قوة مصر العسكرية وإنهيار الدولة المملوكية

كان المماليك من ضمن أضعف الفئات التى تعرضت للموت نتيجة لوباء الطاعون، لنقص المناعة لديهم. فقد كانوا من فئة الغرباء التى تتحدث عنهم المصادر التاريخية والجدد منهم لم يتعرضوا للوباء من قبل دخولهم لمصر ويشكل المماليك القوة الضاربة للجيش المملوكى في ذلك الوقت، لذا فقد كان السلاطين يحرصون دائما على شراء أعداد كبيرة منهم كل عام لإعدادهم للقتال والحرب.

وتشير العديد من المصادر التاريخية إلى الفناء الذى تعرض له المماليك في الطواعين المختلفة، ويذكر ابن إياس في طاعون رجب ٨٣٣هـ أنه "صار يموت من المماليك الذين بالطباق كل يوم نحو من خمسمائة مملوك، ثم تزايد عمله في الغرباء، حتى صار يحفر لهم حفرة كبيرة ويلقوا فيها عدة من الأموات"(٦٤). ونتيجة لفناء العدد الكبير من المماليك أضطربت جميع الأحوال الإدارية والحياة اليومية بقلعة الجبل، وللتدليل على ذلك يذكر المقريزى حادثة ذات دلالة في طاعون رجب ٨٣٣هـ "وشنع الموت والأمراض في المماليك السلطانية بحيث ورد كتاب من طرابلس فلم يجر الشريف عماد الدين أبو بكر عدنان- كاتب السر- من يتناوله حتى يفتحه للسلطان- فأخبرنى رحمه الله- أنه خرج بين يدى السلطان (الأشرف برسباى) حتى وجد واحداً

من المماليك خارج القصر، فدخل به حتى أخذ الكتاب القادم به وفتحه ثم قرأه على السلطان"(٦٥).

أحصى مؤرخي تلك الفترة أعداد المماليك الذين يموتون كل يوم ، ويذكر ابن إياس في طاعون ٨٦٤هـ، أنه "ضبط عدّة من مات فيه من المماليك الجلبان، فكانوا نحواً من ألف وخمسمائة من مماليك السلطان الجلبان فقط"(٦٦). وفى طاعون ٨٨١هـ (مات في هذا الطاعون من الأمراء العشرات(٦٧) والخاصكية مالا يحصى عددهم)(٦٨). ويذكر ابن إياس أنه في هذا الطاعون مات المماليك حتى فنوا عن أخرهم وفي ذى الحجة فحش الطاعون جداً، ومات من المماليك السلطانيه نحو من الفين مملوك وزيارة، خارجاً عن المماليك السيفية والقرانصة، ومات من الطواشية نحو من خمسة وعشرين طواشياً، حتى قيل أن السلطان حمل بطيخة صيفى بنفسه حتى دخل بها إلى دور الحريم لقلة الطواشية"(٦٩).

ثالثاً: تجاهل الشواهد على العلاقة بين

الطاعون وهزيمة الجيش المملوكى في كل الحملات العسكرية

أدت الخسائر الفادحة للجيش المملوكى نتيجة لإزدياد عدد الوفيات فيه إلى نتيجتين هامتين : أ- تمرد القوات المملوكية. ب- هزيمة القوات المملوكية وإنهيار دولة المماليك أمام الدولة العثمانية ، التى كان لها التفوق نتيجه لاستخدامها للأسلحه الناريه .

أ - تمرد الجيش المملوكى أثناء انتشار وباء الطاعون

كان العَرَض الأول في تدهور القوة العسكرية لمصر نتيجة لكارثة السكان التى طالت كل أفراد الشعب والمماليك، هو تمرد القوات المملوكية وعدم انصياعها لأوامر السلطان.

١- وتذكر المصادر التاريخية كيف أن السلطان قايتباى عندما عين بعض كبار الأمراء للخروج في حملة لتأديب شاه سوار، رفض هؤلاء الأمراء تنفيذ أوامر

السلطان، ويذكر ابن إياس في حوادث جمادى الآخرة ٨٧٣هـ وكان الطاعون منتشراً "وفيه عرض السلطان العسكر وأخذ في أسباب خروج تجريده ثقيلة إلى شاه سوار، وهى التجريدة الثانية، فعيّن باش عسكر الأتابكى أزبك بن ططخ، وقرقماش الجلب أمير مجلس، وسودون القصروى رأس نوبة النوب.... فلما كان يوم الموكب طلع قرقماش الجلب إلى القلعة وطلب من السلطان الإعفاء من السفر، وأظهر العجز... وفي رجب حضر من البحيرة الأتابكى أزبك، فلما نزلت له النفقة تمنّع من السفر، وزعم أنه لا يطيق مماليك السلطان إذ عمل باش عسكر"(٧٠).

٢- وقد تدهورت الأمور أكثر من ذلك، إذ عاد من تبقى من الحملة بعد هزيمتهم أمام شاه سوار، إلى مصر بدون إذن السلطان، الذى تغاضى عن ذلك. ويذكر ابن الصيرفى حوادث ذى الحجة ٨٧٣هـ أن العسكر بعد هزيمتهم أمام شاه سوار توجهوا إلى حلب "في غاية القلة والجهد والتعب والنصّب والوصب، فلم يطيقوا الإقامة بها- أى حلب- وخرجوا منها بغير إذن السلطان وعادوا إلى مصر خفية بل جهاراً"(٧١).

جـ- وقد تكرر تمرد العسكر المملوكى أيضا أيام السلطان الغورى وذلك في ربيع الآخر عام ٩١٩هـ، أثناء الطاعون الذى انتشر في مصر في ربيع الأول ٩١٩هـ، ويذكر ابن إياس: "كيف أن السلطان كلفّ ثلاثمائة مملوك بالذهاب إلى السويس للكشف عن المراكب التى جهزها السلطان للذهاب إلى الهند لمحاربة الأسطول البرتغالى، لكنهم رفضوا الذهاب لعدم تسلمهم رواتبهم ولتفشى وباء الطاعون الذى أصابهم بالذعر والخوف وإنهيار روحهم المعنوية. "ورسم لهم (أى السلطان) أن يخرجوا إلى هناك بسرعة من غير نفقة فتضرروا من ذلك، ثم بلغ السلطان أن المماليك المتعينين للسفر قد صمموا على عدم السفر، وكان منهم ناصرية وظاهرية وأشرفية وعادلية وغير ذلك، فبلغ السلطان أنهم قالوا: نحن نسافر بلا نفقة، نموت في البرارى بالجوع والعطش"(٧٢).

ب- هزيمة الجيش المملوكى في كل الحملات العسكرية التى خرجت أثناء وباء الطاعون

هناك علاقة ظاهرة للعيان بين وباء الطاعون وكل الحملات العسكرية التى وجهتها مصر ضد الممالك الصغيرة التى ازداد تمردها والموجودة على أطراف الدولة في الشام، أو ضد القوى العسكرية الكبيرة مثل البرتغال الذى توسع أسطولها في مدخل البحر الأحمر واستولوا على ميناء جدة، والذين استولوا على ممالك كانت تحت النفوذ المصرى في الهند مثل مملكة كمران. أما القوة الثانية فكانت الدولة العثمانية الصاعدة، والتى استولت شيئا فشيئا على ممالك الأطراف التابعة لمصر. فنتيجة لعدم إدراك مفهوم العدوى، كما بدا من الملاحظات الطبية التى كتبها المؤرخون والفقهاء على مدى فترة طويلة تمتد إلى مائة وثمانين عام. ونتيجة للنهى عن الخروج والهجرة من الأماكن الموبوءة بالطاعون، لم يلتفت الفقهاء ولا النخب الحاكمة من المماليك، ولا الأطباء لتلك العلاقة الكارثية بين خروج الحملات العسكرية وخاصة اثناء وباء الطاعون وفشل هذه الحملات وهزيمتها هزيمة منكرة. وتقبل الشعب المصرى ومعه النخب الدينية والطبية والعسكرية، هذا المصير كأنه قدر مكتوب.

وتعد فترة حكم السلطان برسباى (٨٢٥- ٨٤٢هـ) نهاية فترة وبداية فترة في مصير دولة المماليك. فقد شهدت بداية الفترة الأولى من ٨٢٥هـ إلى ٨٣٣هـ وهى فترة ٩ سنوات حملات فتح جزيرة قبرص، وتمثل هذه الفترة آخر فترة لقوة الدولة المملوكية . أما الفترة الثانية التى تبدأ بطاعون عام ٨٣٣هـ وتمتد أيضاً لمدة ٩ سنوات، فهي تعد بداية الإنهيار لقوة الدولة المملوكية والتى انتهت فعليا في عام ٩٢٢هـ.

كانت أول الحملات على جزيرة قبرص زمن السلطان برسباى في رمضان شوال ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م، والثانية في جمادى الأول- رجب ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م. والتى انتصر فيها الجيش المملوكى. "وفيه (رمضان ٨٢٩هـ. جاءت الأخبار بأن

العسكر انتصر على الفرنج، وأخذوا جزيرة قبرص من يد الافرنج، وكانت هذه النصرة على غير القياس، فإن عسكر الإسلام كانوا فئة قليلة، وصاحب قبرص جاءته نجدة كبيرة من ملوك الإفرنج الذين حوله"(٧٣). وفى هذه الحملة أسر ملك قبرص وولده، وأسرة بلغوا ١٥٠٠ إنسان، وقد فدى ملك قبرص نفسه بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار يدفع نصفهم، على أن يدفع ٢٠,٠٠٠ دينار كل عام "واشترط (ملك قبرص) على السلطان أن يكف عنه طائفة البندقية وطائفة الكيتلان"(٧٤). أى أن مصر يجب أن يكون لها النفوذ العسكرى الكافى حتى يتمكن ملك قبرص بدفع الجزية. وهو ما افتقدته مصر بعد ذلك ووقعت جزيرة قبرص تحت نفوذ الإفرنج.

١- فشل الحملات على جزيرة رودوس ٨٤٧- ٨٤٨هـ

كان طاعون شوال ٨٤٢هـ هو أول طاعون في فترة حكم السلطان جقمق (٨٤٢- ٨٥٧هـ) والذى تولى الحكم في ربيع الأول من عام ٨٤٢هـ. وقد أرسل السلطان جقمق تجريده حربية إلى جزيرة رودوس في صفر عام ٨٤٧هـ. وقد فشلت هذه الحملة.

ثم وقع بينهم (أى العسكر المملوكى) وبين صاحب رودوس واقعة شديدة، قتل فيها من العسكر جماعة كثيرة، منهم فارس نائب قلعة دمشق، ومن المماليك السلطانية ما يزيد على مائة مملوك، وجرح أكثر من خمسمائة مملوك، وارتد فيها طائفة إلى دين النصرانية من المماليك، ثم رجعوا البقية من غير طائل"(٧٥). وفى العام التالى وفى ربيع الأول ٨٤٨هـ، أرسل السلطان جُقمُق تجريده أخرى إلى رودوس لقيت نفس المصير. ويذكر ابن إياس "وفى جمادى الآخرة، جاءت الأخبار، بأن العسكر لما وصل رودوس، استطال عليهم صاحب رودوس، ولم يظفروا بطائل، فعادوا إلى ثغر الإسكندرية، ومرض غالبيتهم، وما أراد الله لهم بنصره"(٧٦). ويلاحظ على هذه الحملة أنها خرجت في ربيع أول أثناء فصل الطاعون الثانى الذى بدأ من المحرم حتى جمادى الآخرة من عام ٨٤٨هـ والذى استمر لمدة ستة أشهر، والذى كانت ذروة انتشاره والموت فيه هو شهر صفر. أى أن الحملة خرجت والجنود مرضى

بالطاعون: فلا عجب ان يذكر ابن إياس "فعادوا إلى ثغر الإسكندرية، وقد مرض غالبهم". فالهزيمة هنا كانت متوقعة وحتمية لكون غالب أفراد الحملة إما مرضى ويقاومون، أو حاملين للمرض وفي فترة الحضانة التى يعقبها ظهور الأعراض.

٢- فشل الحملة على جزيرة قبرص ٨٦٥هـ

كانت جزيرة قبرص منطقة صراع بين النفوذ المصرى منذ أن استولى السلطان برسباى على الجزيرة في عام ٨٢٩هـ/ ١٤٤٥م.. ونفوذ الافرنج. وفى فترة السلطان الأشرف إينال (٨٥٧- ٨٦٥هـ) ثارت مشكلة وراثة العرش في قبرص، حيث قدم في رمضان ٨٦٣هـ ابن ملك الجزيرة يطلب مساندة السلطان في ولاية العرش عوضا عن أبيه الذى كان يلقى التأييد من الفرنج.. وقد اضطر السلطان إلى تجهيز حملة إلى قبرص للوقوف بجانب "جاكم بن جوان" الذى يطالب بالعرش بدلا عن ابيه. وقد خرجت الحملة في شعبان ٨٦٤هـ أثناء فترة طاعون ربيع آخر- رمضان ٨٦٤هـ. وهو ما أدى إلى فشل الحملة وعدم تحقيق الغرض منها. "وفيه (المحرم ٨٦٥هـ) وصل بردبك عرب الاشرفى الخاصكى، وكان مع العسكر في قبرص، فأخبر أن الأمير يونس البواب واصل عن قريب، وقد ترك جماعة من العسكر بقبرص، وأخبر أن جماعة كثيرة من العسكر ماتوا بالطاعون"(٧٧). رغم أن الحملة قد تعرضت إلى ريح عاصفة بعثرت المراكب مما أدى إلى تشتت القوات المملوكية. إلا أن السبب الحقيقى والظاهر هو الطاعون الذى مات به معظم الجيش المملوكى على سواحل قبرص.

٣- هزيمة الجيش المملوكى أمام شاه سوار ٨٧٣هـ

كانت إمارة بنى دلغادر من ضمن الإمارات التى توجد على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين وقد كانت تلك الأمارة أيام أميرها شاه سوار ضمن نفوذ الدولة المملوكية، وقد اخذ شاه سوار بتحريض من الدولة العثمانية الصاعدة إثارة المشاكل للدولة المملوكية زمن السلطان قايتباى (٨٧٢- ٩٠١هـ). وقد جهز السلطان حملة صغيرة في عام ٨٧٢هـ فشلت في تحقيق أهدافها ثم جهز حملة كبيرة عام

٨٧٣هـ. وقد كان بهذه الحملة العديد من أمراء الطبلخانات والعشرات. وقد خرجت الحملة في شهر شعبان ٨٧٣هـ أثناء طاعون رجب شوال ٨٧٣هـ وفي هذا الطاعون كان شهر شعبان هو ذروة العدوى وذروة الوفيات (انظر جدول رقم ١). ولذلك تذكر المصادر الظروف السيئة التى أحاطت بتلك الحملة التى خرجت في ذروة وباء الطاعون. وقد خرج في التجريدة "... من الجند نحو من ألف وخمسمائة مملوك، وخرج قبل ذلك أزدمر الطويل ومعه خمسمائة، **فصار الطاعون عمالا (عمّال، أى شغال أو مستمر) والتجريدة خارجة، والعسكر في غاية الضرر على أولادهم وعيالهم**، ومات من العسكر في أثناء الطريق جماعة كثيرة بعد خروجهم من الريدانية، وقيل أن السلطان نزل تحت الليل إلى الأتابكى أزبك، وأقام عنده ساعة وودعه وعاد إلى القلعة، كل ذلك تحت الليل، ولم يشعر به أحد من الناس"[٧٨] ، أى أن السلطان بنفسه قد زار الاتابكى أزبك باش العسكر، قائد التجريدة، ليشد من أزره ويرفع من روحه المعنوية في ظروف غاية في السوء.

كانت النتيجة منطقية من وجهة النظر الطبية، هى هزيمة الحملة في ذى القعدة ٨٧٣هـ "وإذا بتانى بك الظاهرى أحد أمراء العشرات رءوس النوب وقد حضر، وكان ممن خرج في التجريدة، فأخبر بكسرة العسكر ورجوعه إلى حلب، وهذه ثانى كسرة وقعت لعسكر مصر مع سوار"[٧٩].

٤- هزيمة القوات المملوكية أمام البرتغال والعثمانيين ٩٢٢هـ

واجهت القوات المملوكية أثناء حكم السلطان الغورى (٩٠١- ٩٢٢هـ)، قوتين كبيرتين. كانت القوى الأولى هى البرتغال التى هددت طريق التجارة في المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وبحر العرب والهند، أما القوة الأخرى فكانت الدولة العثمانية وقد أدى تهديد تجارة مصر مع الجزيرة العربية والهند إلى تدهور وضع مصر الاقتصادى وإفلاس الخزانة وبالتالى قلة الإنفاق على الحملات العسكرية. ويؤكد ابن إياس في حوادث المحرم ٩٢٠هـ "..... وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الإنشحاط والتعطيل. فإن بندر الإسكندرية خراب ولم

تدخل إليه القطائع في السنة الخالية، وبندر جده خراب بسبب تعبث الفرنج على التجارة في بحر الهند، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جده نحواً من ستة سنين، وكذلك جهة دمياط"[٨٠] وقد تزامن مع خروج القوات المملوكية إلى كل من الهند والدولة العثمانية انتشار الطاعون وهو ما أدى إلى هزيمة هذه القوات.

فقد خرجت الحملة الأولى إلى الهند في جمادى الأخرى ٩١١هـ بعد تسعة شهور فقط من طاعون رمضان ٩١٠هـ. وفى وقت لم يتعافى فيه الجيش المملوكى ويعوض إعداد من ماتوا بالطاعون من المماليك، كما لم يكن لدِى هذا القوات الوقت الكافى للإعداد والتجهيز القتالى. لذلك ضم العسكر الذى خرج في هذه الحملة طباق خامس (أى فرقة) وهو تقليد يتبع لأول مرة في تاريخ دولة المماليك، ويضم هذا الطباق خليط من الجند من فئات وأجناس مختلفة، يفتقدون التآلف القتالى. ويذكر ابن اياس "وكان العسكر الذى خرج في هذه التجريدة (جمادى الآخرة ٩١١هـ) ملفقاً ما بين أولاد ناس، وبعض مماليك سلطانيه، والغالب فيهم مغاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك"[٨١]. ولم تذكر المصادر مصير هذه الحملة. أما التجريدة الثانية إلى الهند لمحاربة البرتغاليين، فقد خرجت في رجب ٩٢١هـ، أى بعد الطاعون الثالث في دولة السلطان الغورى وهو طاعون المحرم- ربيع أول ٩١٩هـ. وقد هزمت هذه الحملة هزيمة كبيرة في موقعة ديو البحرية في شوال ٩٢٢هـ. "وفيه (شوال ٩٢٢هـ) وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك، وأنه قد وقع نزاع بين الريس سليمان العثمانى وبين الأمير حسين نائب جده، وأن كل منهما توجه إلى جهة من جهات الهند ولم يعلم له خبر"[٨٢]. وفي نفس العام وقبل ورود الأخبار بهزيمة الهند هزم السلطان الغورى أمام السلطان سليم العثمانى في ٢٥ رجب ٩٢٢هـ.

رابعا: تجاهل موقف ابن الخطيب حول مفهوم العدوى في وباء الطاعون

أدى إنكار وتجاهل الملاحظات الثلاث السابقة، إلى نتيجتين كبيرتين وهما، أولا: عدم إلتفات الفقهاء وكذلك الطب العربى وبخاصة علم الأوبئة، وخاصة في المشرق إلى أهمية الرسالة الطبية المنطقية التى كتبها لسان الدين ابن الخطيب (١٣١٣-١٣٧٩م) والتى قدم فيها تفسيرا مبتكرا لمفهوم العدوى في الطاعون. ثانياً: عدم القدرة على تطبيق إجراءات الحجر الصحى، لمقاومة الطاعون، والذى طبقته المجتمعات الأوروبية.

عاصر ابن الخطيب، الطاعون الكبير ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م والذى هاجم بلاد الأندلس أيضا: وفي خلال هذا الوباء كتب مقالته الطبية الهامة "مقدمة السائل عن المرض الهائل". وقد بين ابن الخطيب في هذه الرسالة أمرين هامين، وهما؛ أولا: أن الطاعون عدوى يجب تجنبها، ثانياً: أن نقطة البداية في علاج الطاعون هو الوقاية، وأنه لا علاج لهذا الوباء غير إجراءات الوقاية. لإثبات هاتين النقطتين اعتمد ابن الخطيب على البرهان العلمى وأدلته في ذلك كانت الشواهد التجريبية والاستقراء العلمى. أما الشىء الثانى الذى اعتمد عليه ابن الخطيب، فقد كان الأدلة الشرعية، وأدلته في ذلك فقه المقاصد.

نقطة البداية عند ابن الخطيب هى الإقرار بأن الطاعون عدوى، ولذلك فإن العلاج ينقسم إلى قسمين، التحرز منه قبل وقوعه، مثل إصلاح الأغذية، أو إصلاح الأهوية الفاسدة. "أما الثانى، وهو الأجدى فهو اجتناب مظان الفساد من المريض والميت أو ثوبه أو أنيته أو آلته أو سكنى محله أو مجاورة البيت الذى فشى(الطاعون) في أهله[٨٣]. فإذا كان الطاعون يعدى، فالواجب للإنسان الصحيح تجنب العدوى التى يمكن أن تنتقل عن طريق إفرازات المريض سواء كانت من فمه أو أنفه، أو التى يمكن أن تنتقل عن طريق ملابسه ومتعلقاته الشخصية أو الكوب الذى يشرب منه أو الأنية التى يأكل فيها، أو يمكن أن تكون في السكن الذى يعيش فيه، أو في البيت الذى يجاوره وفشى فيه الطاعون. هذه الملاحظات الفريدة التى أوردها ابن الخطيب هى ما أثبتها الطب الحديث بعد ذلك. أى أن الخطوة الأولى في إجراءات

الوقاية هى عزل المصاب وتجنب زيارته خاصة مع المعرضين للعدوى مثل الأطفال أو النساء أو الغرباء.

ويذكر ابن الخطيب "فإن قيل كيف نسلّم دعوى العدوي، وقد رد الشرع بنفى ذلك، قلنا وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والإستقراء والحسّ والمشاهدة والأخبار المتواترة"[٨٤]. فالبرهان الذى يقدمه ابن الخطيب لإثبات العدوى يعتمد على أدلة المشاهدة والتجربة والاستقراء والأخبار المتواترة، أى الأخبار المنقولة والمقروءة من كتب التاريخ، وهى ما يحيلنا إلى كثرة الأخبار المكتوبة عن الطاعون والتى حفلت بها كتب المؤرخين.. الشيء الأخر الذى يحاجج به ابن الخطيب أصحاب أهل القياس من رجال الدين والمفتين، هو أن أثبات العدوى بالطاعون ليس من اختصاص رجال الدين، بل هو من اختصاص غيرهم من أهل الطب، ويذكر "والكلام في القول بالعدوى أو بعدمها شرعا ليس من وظائف هذا الفن، إنّما جرى مجرى الجمل المعترضة والمثل وله تحقيق في محله"[٨٥].

يؤدى الإختلاط بمريض الطاعون إلى انتشار المرض إلى من حوله من أهله والمحيطين به، وهو من الأمور المشاهدة "وغير خفى عمن نظر في هذا الأمر أو أدركه هلال من يباشر المريض بهذا المرض وسلامة من لا يباشره"[٨٦].

ليس هذا فحسب، فالأفراد الذين لا يختلطون بالأماكن الموبؤة هم أكثر الناجين من الوباء، والأماكن البعيدة والمنعزلة تقدم الحماية الطبيعية من الوباء لساكنيها، والسجون تقدم الحماية هى الأخرى لنازليها من المرض. ويؤكد ابن الخطيب على "سلامة الكثير ممن أغيى في التوحش كالزاهد ابن أبى مدين بمدينة سلا، وكان من القائلين بالعدوى، وقد تزود لمدة وبنى باب منزله على أهله وهم كثيرون، وفنيت المدينة ولم يرزأ نسمه واحدة بطول تلك المدة. وتواترت الأخبار بسلامة أماكن لا تطاها الطرق ومنقطعة عن الناس، ولا أعجب لهذا العهد من سجن الأسرى المسلمين أنقدهم الله بدار صنعة أشبيلية وهم الوف لم يصبهم الطاعون وقد كاد أن يستأصل المدينة[٨٧].

يعارض ابن الخطيب المفتيين الذين انكروا العدوى، ويذكر أنهم وقفوا مع ظاهر الحديث "ومن الأصول التى لا تجهل أن الدليل السمعى إذا عارضه الحس والمشاهدة لزم تأويله، والحق في هذا تأويله بما ذهب إليه طائفة ممن ثبت القول بالعدوى"[٨٨]

ويرى ابن الخطيب أن إعراض المفتين بالأخذ بشواهد الحس والمشاهدة فيه تعدى على مقاصد الشريعة التى تهدف إلى مصلحة المجتمع، وليس هناك مصلحة أكبر من تفادى ضرر فناء المجتمع الإسلامى، ويذكر ابن الخطيب أن الأخذ بمبدأ المصلحة دعى بعض المفتين ممن رفضوا مفهوم العدوى إلى التراجع عن فتواهم السابقة. "وبالجملة فالتصمام عن مثل هذا الاستدلال زعارة وتصاقر على الله وإسترخاص لنفوس المسلمين. وقد وقف قوم من أهل الورع بالعدوة إلى الناس مستقبليين مشهدين على أنفسهم بالرجوع عن الفتوى بذلك تحرجا من تسويغ الإلغاء باليد إلى التهلكة"(٨٩).

لماذا لم تتمكن المجتمعات الإسلامية من تطبيق اجراءات "الحجر الصحى"

ويمكن القول هنا أن الإقرار بمفهوم العدوى والعلاج عن طريق الوقاية بتجنب أفرازات المريض ومتعلقاته الشخصية والتى هى مصدر العدوى، وتفادى الأصحاء الاختلاط به كما ذكره ابن الخطيب في رسالته، كانت من أهم النقاط في برنامج مقاومة الطاعون والذى عرف في أوروبا بإجراءات "الحجر الصحى". ونتيجة لهذا، ونتيجة لغياب التجديد في مجال علم أصول الفقه، ونتيجة لعدم تفاعل الطب العربى مع نظرية ابن الخطيب، عملت كارثة الطاعون على إبادة السكان في الشرق الإسلامى، بينما ادى تطبيق النظريات الطبية الجديدة التى أخذت بها أوروبا إلى زيادة السكان، وهو ما أدى من ضمن أسباب أخرى إلى سيادة الغرب الأوروبى وإنهيار المجتمعات الإسلامية نتيجة لهذه الكارثة الديموجرافية. وقد كان من ضمن هذه النتائج هو انهيار دولة المماليك. انهيار الممالك والدول نتيجة لكارثة الطاعون يرصد ابعادها المقريزى. ويقول في حوادث ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م. "نادرة قل ما وقع مثلها، وهى ثمانى عشرة دولة من دول العالم بأقطار الأرض زالت في مدة بضعة عشر شهراً، وأكثر أرباب هذه الدول الزائلة مات، وهم الحير ملك امحره، وسلطان الحبشة، ومات أميرزاده ان شايع رخ ابن تيمور لنك صاحب شيراز، ومات ملك دله، ومات اصحب كرمان، ومات ملك تونس وبلاد أفريقية، وصاحب مدينة آمد ومدينة ماردين، فملك مدينة تلمسان....."(٩٠).

هوامش البحث :

(١) زين الدين أبو حفص الوردى: ديوان ابن الوردى- تحقيق. عبد الحميد هنداوى- دار الأفاق العربية- القاهرة. ٢٠٠٦، ص٨٧.

(٢) لسان الدين ابن الخطيب: مقنعة السائل عن المرض الهائل. نصوص ودراسات في الطب الإسلامى. معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. جامعة فرانكفورت جمهورية المانيا الأتحادية. ١٩٩٧م. ص٤٥.

(٣) جلال الدين السيوطى: ما رواه الواعون في أخبار الطاعون. دار القلم. دمشق ١٩٩٧م.

(٤) جلال الدين السيوطى: مقامات السيوطى الأدبية والطبية- تحقيق: محمد إبراهيم سليم. مكتبة الساعى- ١٩٨٩م.

(٥) لسان الدين ابن الخطيب: مصدر سابق- ص٤٥.

(٦) شلدون واتس: الأوبئة والتاريخ- المرض والقوة والإمبريالية. ترجمة وتقديم: أحمد عبدالجواد. المركزالقومى للترجمة. القاهرة ٢٠١٠، ص٦٥.

(٧) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط في العصور الوسطى. ترجمة: عبد الهادى علبه. دار قتيبة للطباعة والنشر. دمشق ١٩٨٥، ص٣٧٩

(٨) أولياشبلى: سياحتناما مصر. ترجمة: محمد على عونى. تحقيق: عبد الوهاب عزام. دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة ٢٠٠٣، ص٥٧٤.

(٩) آ. آشتور: مرجع سابق ص٣٨٨.

(١٠) فى العقد الأخير من القرن الثامن عشر حدث في مصر ثلاث موجات من الطاعون وذلك في أعوام ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م، ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م، ١٢١٣هـ/ ١٨٠٠م. وهو الطاعون الذى حدث أثناء الحملة الفرنسية على مصر. وقد استمر الطاعون يهاجم مصر اثناء فترة محمد على باشا؛ فحدث طاعون عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٣م، ثم طاعون ١٢٤٧هـ/ ١٨٣٤م، وفي هذا الطاعون وصلت الوفيات في مدينة القاهرة إلى ٧٥,٠٠٠ وفقدت مصر أيضاً ١٢٥,٠٠٠ أخرين. وكان الطاعون الأخيرعام ١٢٥٤هـ/ ١٨٤١م. (انظر كتاب: الأوبئة والتاريخ).

(١١) اندريه ريمون: القاهرة، تاريخ حاضره. ترجمة: لطيف فرج. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٩٤، ص٢٦٠.

(١٢) تقى الدين المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك- تحقيق وتقديم: د. سعيد عبدالفتاح عاشور. مطبعة دار الكتب ١٩٧٢، جـ٢ ق١ ص٧٨٧.

(١٣) وقد تزايدت تلك النسبة بعد ذلك في عهد السلطان قايتباى (٨٧٢هـ/ ٩٠١هـ) والسلطان الغورى (٩٠٩هـ/ ٩٢٢هـ).

(١٤) آ. آشتور: مرجع سابق ص ١٣١.

(١٥) تقى الدين المقريزى: مرجع سابق ص٩٠٩.

(١٦) آ. آشتور: مرجع سابق ص٤٠٠.

(١٧) David Neustadt: The plague and its effect upon the Mamluk Army J.R.A.S. ١٩٤٦.

(١٨) أندريه ريمون- مرجع سابق ص١٥٥.

(١٩) على السيد على: الفناء الكبير في القرن الرابع عشر الميلادى: دراسة مقارنة بين الشرق والغرب- المجلة التاريجية المصرية. الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. المجلد الثالث والثلاثون ١٩٨٦، ص١٦٧.

(٢٠) نفس المرجع: ص١٦٨.

(٢١) آ. آشتور: مرجع سابق ص٣٨٨.

(٢٢) شلدون واتس: مرجع سابق ص ١٠٤.

(٢٣) نفس المرجع: ص٩٢.

(٢٤) نفس المرجع: ص١٠١.

(٢٥) نفس المرجع: ص١٠١.

(٢٦) نفس المرجع: ص١٠٤.

(٢٧) ابن حجر العسقلانى: بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق: عصام الكاتب. مطبعة دار العاصمة- الرياض- المملكة العربية السعودية. ١٤١١هـ ص٢٦.

(٢٨) نفس المرجع ص٣٠٥.

(٢٩) ابن القيّم الجوزية: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية تحقيق حازم القاضى. مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة- المملكة العربية السعودية ٢٠٠٧. ص٨.

(٣٠) نفس المرجع: ص٧.

(٣١) نفس المرجع: ص٣٣٩.

(٣٢) نفس المرجع: ص٣٤٠.

(٣٣) نفس المرجع: ص٣٤٠.

(٣٤) ابن حجر العسقلانى: مرجع سابق ص٣٤١.

(٣٥) نفس المرجع: ص٢٩٢.

(٣٦) نفس المرجع: ص٢٢٩- ٢٤٠.

(٣٧) زين الدين بن إبراهيم (ابن نجيم): الأشباه والنظائر على مذهب ابو حنيفة النعمان. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩٩، ص٣٣٣.

(٣٨) مرجع سابق: ص٣٣٤.

(٣٩) ابن حجر العسقلانى: مرجع سابق ص٢٧٧.

(٤٠) جلال الدين السيوطى: مصدر سابق ص١٩٥.

(٤١) نفس المرجع: ص١٩٦.

(٤٢) نفس المرجع: ص١٩٧.

(٤٣) نفس المرجع: ص١٩٨.

(٤٤) نفس المرجع: ص٢٠٠.

(٤٥) محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور. حققها محمد مصطفى- فرانز شتاينر- فيسبادن- ألمانيا، جـ٤ ص٢٩٧.

(٤٦) نفس المرجع جـ٢ ص١٢٨.

(٤٧) نفس المرجع جـ٢ ص٣٥٧.

(٤٨) تقى الدين المقريزى: مصدر سابق، جـ٤ ق٣ ص١١٤٠.

(٤٩) جلال الدين السيوطى: مصدر سابق ص١٩٥.

(٥٠) ابن إياس: مصدر سابق جـ٢ ص٣٥٤.

(٥١) جلال الدين السيوطى: مصدر سابق ص ٢٠٠.

(٥٢) ابن إياس: مصدر سابق جـ٢ ص٢٨.

(٥٣) نفس المصدر جـ٢ ص١٢٠.

(٥٤) نفس المصدر جـ٢ ص١٣٢.

(٥٥) نفس المصدر جـ٢ ص١٨٣.

(٥٦) نفس المصدر جـ٢ ص٣٥٨.

(٥٧) ابن إياس: مصدر سابق جـ٢ ص ٣٥٩.

(٥٨) المقريزى: مصدر سابق جـ٤ ق٢ ص١٠٤٨.

(٥٩) ابن إياس: مصدر سابق جـ٣ ص٢٨.

(٦٠) المقريزى: مصدر سابق جـ٤ ق٢.

(٦١) ابن إياس: مصدر سابق: جـ٢ ص٣٢٢.

(٦٢) نفس المصدر جـ٢ ص٢٨٧.

(٦٣) ابن إياس: مصدر سابق: جـ٤ ص٢٩٨.

(٦٤) ابن إياس: مصدر سابق جـ٢ ص١٢٨.

(٦٥) المقريزى: مرجع سابق جـ٤ ق٢ ص٨٣٠.

(٦٦) ابن إياس: مرجع سابق جـ٢ ص٣٣٠.

(٦٧) أمير عشره: أحد رتب المماليك، ويليه أمير أربعين، أى أمير طبلخانة، ثم أمير مائة.

(٦٨) ابن إياس: مرجع سابق جـ٢ ص٣٣٠.

(٦٩) ابن إياس: مرجع سابق ص١٢٤ جـ٣.

(٧٠) ابن إياس: مصدر سابق جـ٢ ص٢٦- ٢٧.

(٧١) ابن الصيرفى: انباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق وتقديم: د. حسن حبشى. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ٢٠٠٢. ص٧٩.

(٧٢) ابن إياس: مرجع سابق جـ٤ ص٣١٠.

(٧٣) ابن إياس: مصدر سابق. جـ٢ ص١٠٧.

(٧٤) المقريزى: مصدر سابق: جـ٤ ق٢ ص٧٢٦.

(٧٥) ابن إياس: مصدر سابق جـ٢ ص٢٣٨.

(٧٦) نفس المصدر جـ٢ ص٢٤٣.

(٧٧) ابن إياس: مصدر سابق جـ٢ ص٣٦٣.

(٧٨) ابن إياس: مصدر سابق جـ٣ ص٢٩.

(٧٩) نفس المرجع جـ٣ ص٣٤.

(٨٠) ابن إياس: مصدر سابق، جـ٤ ص٣٥٩.

(٨١) ابن إياس: مصدر سابق جـ٤ ص٨٤.

(٨٢) نفس المصدر جـ٥ ص١١٥.

(٨٣) لسان الدين ابن الخطيب: مرجع سابق ص٣٩.

(٨٤) نفس المرجع: ص٤٣.

(٨٥) نفس المرجع: ص٤٣.

(٨٦) نفس المرجع: ص٤٣.

(٨٧) نفس المصدر: ص٤٣.

(٨٨) نفس المصدر: ص٤٣.

(٨٩) نفس المصدر: ص٤٣.

(٩٠) المقريزى. مرجع سابق. جـ٤ ق٢ ص٩٨٧.

* * *